ذاكرة العرب

مجلة ربع سنوية - العدد الثالث - أكتوبر ٢٠١٩

عدد خاص
عمارة المساجد

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

من إصدارات مكتبة الإسكندرية

نفائس المخطوطات بمكتبة الإسكندرية

للحصول على مطبوعات مكتبة الإسكندرية؛ يُرجى الاتصال بمنفذ البيع:

تليفون: ٤٨٣٩٩٩٩ (٢٠٣)+ داخلي: ١٥٦٠-١٥٦٢

فاكس: ٤٨٢٠٤٧٦ (٢٠٣)+

البريد الإلكتروني: sales@bibalex.org

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الإشراف العام

أ. د. مُصْطَفى الفِقي

مدير مكتبة الإسكندرية

الهيئة الاستشارية

أ. د. أَيْمَن فُؤاد سَيّد

أ. د. أَشْرَف فَرّاج

د. مُحَمَّد الجَمَل

سكرتير التحرير

سُوزَان عَابِد

المراجعة والتصحيح اللغوي

فاطِمَة نَبِيه

مُحَمَّد حَسَن

التصميم الجرافيكي والخطوط

الحَسَن عِصَام

خَالِد مُصْطَفى

الإسكندرية، أكتوبر ٢٠١٩

طُبعت برعاية

OFID
THE OPEC FUND FOR INTERNATIONAL DEVELOPMENT
Uniting against Poverty

ذاكرة العرب

الفِهرِس

المساجد الجامعة وتطورها	٢
الجامع الأموي الكبير في مدينة دمشق	١٨
العمارة الدينية بمدينة سامراء	٤٤
الجامع الكبير بصنعاء	٥٤
هوامش وملاحظات حول المسجد الجامع بالقيروان	٦٢
مساجد مدينة فاس	٨٢
مساجد الموصل التاريخية	١٠٨
الآثار الإسلامية في الإسكندرية (المساجد العثمانية)	١١٦
المساجد التاريخية في المملكة العربية السعودية	١٢٤
مساجد موريتانيا	١٣٤
عمارة المساجد والمدارس في موسوعة «المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية»	١٧٤

المساجد التاريخية في المملكة العربية السعودية

دراسة للأنماط المعمارية

بقلم: الدكتور مشاري عبد الله النعيم

دراسة الأنماط المعمارية التاريخية في أي منطقة، يتطلب أولًا تحديد النطاق الجغرافي والمجال الزمني للدراسة. وعندما تغطي الدراسة منطقة شاسعة مثل المملكة العربية السعودية، يفترض أن تثار العديد من احتمالات عدم الدخول في التفاصيل التاريخية والمعمارية، والاكتفاء بدراسة مسحية مقارنة كمدخل لفهم الخصائص المختلفة للمساجد التاريخية التي نشأت وتطورت عبر قرون عدة في هذه المنطقة، التي تعتبر منبع الرسالة المحمدية، وبداية تكوُّن عمارة المسجد على الإطلاق. نستطيع أن نقول إن النموذج الأول للمسجد المتمثل في مسجد الرسول ﷺ ترك أثرًا مستمرًا في عمارة المسجد في الجزيرة العربية؛ حيث تبدو البساطة والابتعاد عن الزُّخرُف والتمسك بالمقاييس والأحجام الصغيرة المندمجة في البيئة المبنية المحيطة بالمسجد، هي الأسس التي تطورت عليها المساجد اللاحقة في كافة أجزاء الجزيرة العربية.

وتتطلب دراسة المساجد التاريخية في المملكة العربية السعودية تطوير منهجية واضحة للمسح الميداني، الذي على ضوئه سيتم تصنيف النماذج حسب التوزيع الجغرافي؛ حيث تطورت طرز عمارة المساجد في كل منطقة حسب العوامل الثقافية والمناخية والطوبوغرافية والتقنية والمواد المحلية المتوفرة، لكنها جميعًا حافظت على اللغة البسيطة المتواضعة التي نشأت من عمارة المسجد الأول في المدينة المنورة. ويمكن في ظل هذه المنهجية العملية تقسيم الطرز المعمارية للمساجد التاريخية في المملكة حسب التالي:

١- الطراز الحجازي: ويمكن أن نجده في مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والطائف.
٢- طراز ساحل البحر الأحمر: ويمكن أن نجده في ينبع وضبا والوجه وحتى في جدة.
٣- الطراز التهامي: ويوجد في قرى تهامة من الطائف وحتى جازان.
٤- طراز جبال السروات: ويوجد في العديد من القرى الجبلية في الطائف والباحة والعسير وجازان.
٥- الطراز الصحراوي الجنوبي: ويوجد في نجران وظهران الجنوب.
٦- الطراز العسيري (ظل المطر): ويوجد في أبها والمناطق المجاورة لها.
٧- الطراز النجدي: ويوجد في منطقة الرياض والقصيم وحائل.
٨- الطراز الأحسائي: ويوجد في الأحساء والساحل الشرقي.
٩- طراز ساحل الخليج العربي: ويمكن أن نجده في القطيف والجبيل والدمام والخبر.
١٠- الطراز الشمالي: ويوجد في الجوف وتبوك.

هذه الطرز هي محاولة أولية لتصنيف المساجد في المملكة وفهم أنماطها وتطوراتها، وهو في الحقيقة تصنيف قابل للتطوير المستقبلي، إذا ما أردنا أن نعمل بشكل أدق على رصد عمارة المساجد ومسار تطورها خلال الأربعة عشر قرنًا الأخيرة. وبشكل عام، يجب أن نضع في اعتبارنا أن المساجد التاريخية - وإن كانت «تحدارية» - تتوارث عناصرها وتقنياتها بشكل منتظم، إلا أن هناك فروقات بين المساجد المبكرة والمساجد المتأخرة، خصوصًا إذا ما عرفنا أن المسح الأولي شمل المساجد المتاحة منذ فجر الإسلام حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، ونعتقد أن كثيرًا من المساجد التي بنيت في وقت مبكر أعيد بناؤها عدة مرات، ولكن بفروقات بسيطة جدًا عن النموذج الأصلي لها.

عناصر المساجد التاريخية: قراءة مقارنة

يجب الإشارة هنا إلى أن العناصر الأساسية للمساجد المبكرة ظلت مثل التعريشة التي تغطي الجزء المحاذي لجدار القبلة، والصُّفَّة هي تعريشة أخرى في نهاية المسجد، وبينهما فناء مفتوح للسماء، لكن الصُّفَّة أخذت في الاختفاء ولم تعد موجودة، ولم يكن هناك مئذنة أو قبب في المسجد، حتى المحراب كان عبارة عن موضع في المسجد، وكذلك المنبر. ولو حاولنا فهم مجمل العناصر التي تتكون منها المساجد التاريخية فسوف نجد أنها حافظت على نفس النمط مع تطورات طفيفة حدثت عبر الزمن.

وسوف نقوم هنا بتناول عناصر المساجد التاريخية بشكل مقارن حسب الطرز التي وضعناها من قبل:

الكتلة والمحيط العمراني

المساجد التاريخية في كافة المناطق غالبًا ما تكون مندمجة مع المحيط العمراني، ويندر أن نجد مساجد مستقلة عن هذا المحيط، وفي الأصل يكون المسجد هو بداية هذه التجمعات العمرانية ويشكل مركزها. يمكن مشاهدة هذا في بلدة الخبراء في القصيم، وفي أغلب القرى في جنوب المملكة العربية السعودية وشمالها. وقد يختلف الوضع عندما تكون المساجد في المدن الأكبر حجمًا؛ إذ غالبًا ما تكون هذه المساجد ذات طابع تراتبي؛ حيث يوجد مسجد رئيس في البلدة للجمعة، كما توجد مساجد صغيرة متعددة للصلوات الخمس داخل الحارات. وأحيانًا عندما تكون المدن متعددة الحارات السكنية، يكون هناك مسجد للجمعة في

كل حارة، تحيط به المساجد الصغيرة التي تخدم مجموعات سكانية داخل الحارات السكنية، ويمكن مشاهدة ذلك في مدينة الهفوف في الأحساء في شرق المملكة العربية السعودية؛ حيث توجد مساجد للجمعة في الحارات الرئيسية مثل مسجد الجبري في الكوت، ومسجد الإمام فيصل بن تركي في حي النعاثل، وفي جدة مثل مسجد الشافعي ومسجد المعمار، وجميعها مندمجة مع المحيط العمراني، ولا يمكن تميزها إلا بمآذنها.

ورغم أن هذا التوجه هو السائد في المساجد التاريخية، حتى في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة؛ فقد بدأت تظهر بعض الاستثنائات في الفترات العثمانية المختلفة. ففي مطلع القرن السابع عشر تقريبًا نجد مسجد القبة (علي باشا) في الأحساء بطرازه السلجوقي الأناضولي، الذي بدا كأنه شبه مستقل عن الكتلة الحضرية المحيطة به؛ كونه يقع داخل مجمّع حاكم الأحساء في ذلك الوقت. ينطبق هذا على كثير من المساجد التي بُنيت في الحجاز في المدينة المنورة ومكة والمشاعر المقدسة، ولعل آخرها هو مسجد العنبرية بالقرب من سكة حديد الحجاز في المدينة المنورة الذي بُني في مطلع القرن العشرين. وبشكل عام، يجب أن نؤكد أن الكتلة المعمارية للمساجد التاريخية في المملكة كانت دائمًا متناغمة مع كتل المباني المحيطة بها، ولم تتميز عنها في الحجم أو الارتفاع، ولكن كثيرًا منها كان يوظِّف المئذنة كعلامة فارقة ضمن المحيط العمراني، ولم يكن هذا على إطلاقه؛ لأن المساجد في جنوب المملكة لم يكن لها مآذن.

قاعة الصلاة

تمثل قاعةُ الصلاة «التعريشةَ» الأمامية المحاذية لجدار القبلة، وبالطبع لم تبقَ تلك التعريشة البسيطة كما هي طوال كل هذه السنوات، بل حدث لها تطور كبير، واستجابت للمعطيات المناخية والتقنية، وأخذت أشكالًا مختلفة حسب المكان والزمان. ففي معظم المساجد التاريخية في المملكة، خاصة في نجد والأحساء ودومة الجندل في شمال المملكة؛ سوف نجد التعريشة/ قاعة الصلاة المكوَّنة من صف أو صفين من الأعمدة المفتوحة على الفناء؛ هي الغالبة، وهذا الطراز هو الغالب حتى في الحواضر الإسلامية الكبرى مثل بغداد والقاهرة ودمشق، لكن بمقاسات أكبر وأكثر تعقيدًا من الناحية الفراغية والتقنية. لكنها في المساجد التاريخية في المملكة ظلت على بساطتها الأولى وإن صارت تشكَّل بعقود مدببة في نجد ونصف دائرية في الأحساء، وهي مبنية بالطين كما في نجد، وأحيانًا بالأحجار المخلوطة بالطين كما في الأحساء. ويمكن مشاهدة أمثلة لها في مسجد السريحة في الدرعية ومسجد عمر في حي الدرع في دومة الجندل.

في أغلب المساجد التهامية والجبلية تكون قاعة الصلاة مغلقة وليست مفتوحة على أي فناء لبرودة الجو، بينما في الطراز الحجازي تطورت قاعة الصلاة كما نرى ذلك في مسجدَي الشافعي والمعمار في جدة، لتصبح قريبة من عمارة المساجد الكبيرة في الحواضر الكبرى. لكن يجب أن نؤكد هنا أنه حدثت تأثيرات متعددة مع الوقت من خارج الجزيرة العربية، خصوصًا المد العثماني في

جدار قاعة الصلاة في مسجد الشافعي بجدة، المطل على صحن المسجد.

شرق الجزيرة العربية الذي نتج عنه تطور عمارة ذات هوية عثمانية مثل مسجد علي باشا في الهفوف (مسجد القبة)، الذي يمثل أول مسجد بقبة مركزية دون أعمدة في قاعة الصلاة، وهو ما زال موجودًا حتى اليوم، وقد بني بالطوب المحروق، وهي تقنية لم تستمر طويلًا في المنطقة بعد خروج العثمانيين منها.

فناء المسجد والرواق

يعتبر «صحن» أو فناء المسجد أحد عناصره التي ظلت قائمة حتى اليوم، خصوصًا أنه يمثل أحد الامتدادات الرئيسية لمسجد الرسول ﷺ، لكن في مساجد العسيري والتهامي والجبلي قد لا نجد رواقًا واضحًا للمسجد، فقاعة الصلاة مفتوحة على ساحة تعتبر هي الساحة الرئيسية للقرية التي عادة يجتمع فيها الناس بعد الصلاة، وقد يستقبلون فيها ضيوف القرية، وهي وإن كانت تعتبر مثل فناء للمسجد، فإنها في الواقع ساحة متعددة الأغراض. ففي نجد والأحساء وشمال المملكة نجد صحن المسجد بأصالته المبكرة البسيطة والمباشرة، كما أن فكرة الرواق المحيط بصحن المسجد – الذي يعتبر امتدادًا لفكرة الصُّفَّة في مسجد الرسول، وإن كانت الصُّفَّة وجدت في الجهة المقابلة لقاعة الصلاة فإن الرواق يحيط بصحن المسجد من جهة أو أكثر – لم تتطور كثيرًا في هذه المناطق، وإن كان هناك استثناءات مثل مسجد الجبري في حي الكوت في الهفوف بالأحساء، والذي يعود تاريخ بنائه إلى أكثر من ٦٠٠ عام. في الطراز الحجازي وحتى مساجد البحر الأحمر، نجد أن صحن المسجد والرواق المحيط به يشكلان عنصرين أساسيين؛ كون الحجاز ظلَّ على الدوام يمثل امتدادًا لأي تطور معماري يحدث في الحواضر الكبرى.

ومن الضروري أن نؤكد هنا أن المسجد تحكمه قواعد فراغية شبه ثابتة، فعلاقة قاعة الصلاة بالفناء أساسية لكنها ليست إلزامية، وحتى في الأحساء في مسجد علي باشا بُنيت قاعة الصلاة ذات القبة المركزية قبل ٤٥٠ سنة، دون أن يكون للمسجد فناء

لكن له رواق أمام قاعة الصلاة المغلقة، مخالفًا نمط المساجد السائد في المنطقة. وهذا نجده في مسجد العنبرية بالمدينة المنورة المبني على الطراز العثماني في مطلع القرن العشرين ١٩٠٨م. ما نود أن نؤكد عليه هنا هو أن الاستثناءات في عمارة المساجد التاريخية في المملكة لا تمثل القاعدة المعمارية والعمرانية الأساسية التي تمثل خاصية فريدة ارتبطت على الدوام بأصالة عمارة المسجد، التي أرسى قواعدها الرسول ﷺ في مسجده.

المئذنة

تعتبر المئذنة من العناصر الدخيلة على المسجد، والتي بدأت في الظهور في وقت مبكر جدًا في القرن الأول الهجري (ربما بداية من الجامع الأموي). لكن فكرة المئذنة ظهرت مع بناء المسجد الأول عندما بدأ مؤذن الرسول يؤذن على دكة مرتفعة فوق سطح المسجد، ومن المتوقع أن هذه الفكرة كانت ستقود إلى بناء المآذن بعد ذلك. في المناطق التهامية والجبلية، وحتى في الطراز العسيري؛ لا يوجد مآذن للمساجد، وتم الإبقاء على

مسجد العنبرية في المدينة، وهو مبني من الحجر البركاني.

العقود النجدية المدببة التي تميز عمارة المساجد في منطقة نجد.

الدكة المرتفعة على سطح المسجد، رغم أن عمارة هذه المناطق تقوم على بناء الأبراج المتعددة الطوابق والقصبات المرتفعة، لكنها لم تنعكس على عمارة المسجد. ولم تتطور المئذنة حتى منتصف القرن العشرين. أحد المآذن المبكرة نراها في مسجد عمر بن الخطاب في دومة الجندل، وهي مبنية من الحجر، ولا أعلم على وجه التحديد تاريخ هذا المسجد أو المئذنة، لكنها تقترب كثيرًا من طراز مسجد عقبة بن نافع في القيروان بتدرجه الهرمي.

المئذنة في نجد لها طرازها المميز، وغالبًا ما تكون أسطوانية على شكل قُمع رأسه للأعلى لكنه مشطوف، أو تكون ذات قاعدة مربعة، وغالبًا ما تكون فوق قاعة الصلاة، ويقود لها سلم (دَرَج). بعض المآذن كبيرة جدًّا، ويوجد بها غرف كانت تستخدم للتهجد في رمضان كما في مسجد عنيزة في القصيم. ربما تكون المئذنة هي أحد المعالم الرئيسية التي يتميز بها المسجد النجدي على وجه الخصوص، لكن - كذلك في الأحساء - يوجد خصوصية للمئذنة تتمثل في كونها ذات ارتفاع منخفض، وهي أسطوانية برأس مقبب. كما يوجد مآذن ذات طراز سلجوقي على شكل قمع رأسه للأعلى برأس مدبب أو مقبب، ويحيط برأس المئذنة شرفة بارزة ذات تشكيلات خشبية. في الحجاز المآذن متعددة الأشكال والارتفاعات، لكنها في مجملها تحمل التأثيرين المملوكي والعثماني.

يجب أن نوضح هنا أن الحاجة لارتفاع المئذنة كان محدودًا؛ كون أغلب التجمعات العمرانية صغيرًا، ولم تتوسع كثيرًا حتى في المدن الكبيرة مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة - وهما استثناءان - والهفوف وجدة، وظلت الحاجة للارتفاعات الكبيرة مقصورة على مناطق محددة، قد تكون في سدير والقصيم من منطقة نجد. علمًا بأن المساجد التي لا يوجد فيها مآذن كما في مناطق جنوب المملكة هي في الأصل تجمعات عمرانية أسرية محدودة العدد، لذلك لم يكن هناك حاجة فعلية للمئذنة. وفي حقيقة الأمر، إننا لو أمعنا النظر، وحاولنا ربط تطور العديد من العناصر في المسجد بالثقافة الاجتماعية والخصوصية الطوبوغرافية والمناخية؛ فسوف يتضح لنا العديد من خصائص أنماط عمارة المساجد التاريخية في المملكة.

الخلوة وعناصر أخرى

اللافت للنظر أن المسجد التاريخي في العديد من مناطق المملكة العربية السعودية كان يستجيب للحالة المناخية، وتم تطويره ليتلاءم مع حاجة الناس في فصول السنة المختلفة. ففي فصل الصيف، غالبًا ما تستخدم قاعة الصلاة المفتوحة على صحن المسجد في نجد والأحساء وشمال المملكة في أوقات

بساطة التكوين المعماري في المساجد النجدية بمسجد السريحة بالدرعية.

اندماج كتلة المسجد مع المحيط العمراني بمسجد السريحة بالدرعية.

بساطة قاعة الصلاة والمئذنة في مسجد السريحة بالدرعية.

بساطة التكوين المعماري في المساجد النجدية بمسجد السريحة بالدرعية.

مسجد العنبرية في المدينة، وهو ذو رواق أمامي ومأذن عثمانية وقبة مركزية.

الظهر والعصر، بينما يستخدم الصحن وأحياناً سطح المسجد – خصوصًا في نجد – في صلاة المغرب والعشاء والفجر، لذلك نجد في الغالب سلمًا (دَرَجًا) في صحن المسجد في المساجد النجدية، يؤدي إلى سطح قاعة الصلاة، كما نجد في كثير من الأحيان محرابًا في صحن المساجد في الأحساء؛ دلالة على استخدام الصحن للصلاة بدلًا من قاعة الصلاة في الصلوات المسائية في فصل الصيف. وفي الشتاء تتميز المساجد النجدية على وجه الخصوص بوجود الخلوة، وهي عبارة عن قاعة للصلاة تحت الأرض (القبو)، يتم الوصول لها عبر سلم (دَرَج) من صحن المسجد، وتستخدم في فصل الشتاء فقط لصلوات المغرب والعشاء والفجر، وأحياناً جميع الصلوات حسب الظروف المناخية.

ويجب أن نؤكد هنا على أن الإنسان في نجد كان متبصرًا بالوضع الطبوغرافي وطبيعة الأرض، لذلك نجد أن المساجد التاريخية في جلاجل في نجد لم يكن فيها «خلوات»؛ كون القرية برمتها تقع فوق مجرى مائي تحت الأرض. وفي مسجد الظهيرة في الدرعية نجد أن الخلوة مرتفعة في صحن المسجد، وقسمت الصحن إلى جزء مستوٍ مع قاعة الصلاة، وآخر مرتفع قليلًا؛ كون الأرض لا تسمح بالنزول وبناء قبو كامل تحتها.

العناصر الزخرفية

بشكل عام، تخلو المساجد التاريخية من عناصر الزينة والزخارف، إلا من بعض المساجد القليلة التي احتوت على بعض الزخارف الجصية، وبعض النقوش على الأبواب الخشبية وغيرها. وغالبًا ما تكون العناصر التزيينية مرتبطة بوظائف تخدم المسجد مثل «الكوات» التي في الحوائط، والتي تسمى في الأحساء بـ«روازن»، وغالبًا ما تكون لحفظ المصاحف وبعض الكتب الدينية في المساجد، أو تستخدم لحفظ المصابيح للإضاءة الليلية. كما يمكن مشاهدة استخدام العقود خصوصًا في الجدار المقابل لصحن المسجد الذي يحدد بداية قاعة الصلاة، وكل منطقة لها طرازها الخاص الذي يمكن تمييزه عن باقي الطرز.

وبالنسبة لاستخدام القباب في المساجد التاريخية، فهو أمر نادر ومتأخر، ففي الغالب الأعم لم تستخدم القبة كعنصر معماري يُميز المساجد التاريخية، ولكن هناك بعض الاستثناءات التي أتت من الخارج كمسجد القبة العثماني في مدينة الهفوف، وكذلك يوجد قباب صغيرة في مسجد الجبري في الأحساء وظِّف كنظام إنشائي أكثر منه شكل جمالي، كذلك تتميز المساجد الحجازية المتأخرة في الفترة العثمانية بوجود القباب كما في مسجد الرسول ﷺ والمساجد الأخرى المنتشرة في المنطقة مع انعدامها تمامًا في باقي المناطق، وأود أن أشير هنا إلى طبيعة المساجد التاريخية في المملكة وارتباطها بأصل المسجد رغم الاستثناءات التي ذكرتها.

هذه القراءة السريعة للخصائص العمرانية والمعمارية للمساجد في المملكة العربية السعودية تبين كَمَّ التنوع لهذه العمارة التي تفاعلت مع الثقافة والطوبوغرافيا والمناخ، وحاولتْ أن تحافظ على الارتباط الوثيق بالمساجد الأولى التي نشأت في المنطقة، لكنها طورت في نفس الوقت هويات وطنية متعددة ونماذج مختلفة في نفس العناصر المعمارية التي يتكون منها المسجد. في اعتقادي أن القيام بدراسة مستقبلية تفصيلية للأنماط المعمارية للمساجد التاريخية في المملكة، خصوصًا مع توظيف البعد التاريخي، وإعادة ترتيب هذه المساجد حسب التسلسل التاريخي وتطور أشكالها المعمارية وانتقالها من مكان إلى آخر وتأثر بعضها ببعض؛ سوف يتيح لنا فرصة لفهم التطورَيْن التاريخي والمعماري، وتولد الأشكال التي ساهمت عبر التاريخ في جعل المسجد عنصرًا متناغمًا ومتميزًا مع البيئة المحيطة به.

تفاصيل المئذنة في مسجد عمر في شمال المملكة.

المئذنة في مسجد عمر بدومة الجندل في شمال المملكة.

من إصدارات مكتبة الإسكندرية

أبحاث المؤتمر الدولي

الحضارة الإسلامية في الأندلس